

تعريفٌ بالكتاب ومؤلفه

بقلم الأستاذ الدكتور: مصطفى الشكعة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الرسل وخير الأنبياء صلاةً دائمةً مباركةً، عليه وعلى آله الطاهرين وعلى صحابته الطيبين وعلى كل من سار على سنته واستمك بشريعته إلى يوم الدين .

وبعد فإن كلاً من هذا الكتاب النفيس الذى بين أيدينا ومؤلفه الفاضل ليس فى حاجة إلى تقديم، ذلك لأن الكتاب عنواناً ومنهجاً ومحتوى يقدم نفسه للقارئ بأفضل مما يقدمه قلم متواضع يحمله مثلى ويخط به سطوراً مهما تأتق فى صوغ كلماتها وسهر فى تجميع مقاصدها، فإنها - بغير شك - قاصرة عن أن تلبى الحاجة التى تموج فى خاطر القارئ حين يشرع فى قراءة كتاب يحمل اسم أشهر وزير فى أمة الإسلام هو أبو عليّ الحسن بن عليّ الطوسى المعروف بـ«نظام الملك» المتوفى سنة ٤٨٥ هـ .

وكذلك الأمر فيما يتصل بمؤلف الكتاب الأستاذ العلامة الدكتور عبد الهادى رضا محبوبية، ولكن ثمت وشائج نبيلة ربطت بين قلوبنا، وروابط أخوة موصولة رافقت حياتنا، لأنه زميل دراستى الجامعية فى كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول منذ عقد الأربعينيات من هذا القرن، وقد ساعدت شمائل الدكتور عبد الهادى وما حمله قلبه من نبائل الحب وشحنات البر والوفاء ما قد عمق الروابط بيننا فبارك أصولها ونمى فروعها، ومن ثم صار كل منّا من أكثر الناس معرفة بشئون صاحبه وشجون رفيقه، الأمر الذى جعلنى أقحم قلمي ليخط سطوراً قليلة يعرف القارئ من خلالها بمعلومات وجيزة عن المؤلف وعن الكتاب .

فأمّا الأخ الأستاذ الدكتور عبد الهادى رضا فهو مسلم عربى عراقى المولد ولكن كلاً من العراق ومصر تتقاسم هويته الثقافية المتمثلة فى علمه وعروبته وإسلامه، ذلك لأنّهُ قضى بمصر نحو خمسة عشر عاماً من شرح شبابه مجتمعةً. متواصلةً حيناً، ومنفرطةً متفرقةً حيناً آخر حصل فى خلالها على جميع إجازاته العالية والعليا بدءاً بالليسانس وانتهاءً بالدكتوراه عام ١٩٥٩م، وإن هذا القدر من حياته المباركة الذى قضاه فى مصر مترع بأسباب السعادة متزاحم بقوافل الذكريات التي تحمل ذاكرتى منها الشئ الكثير الذى لا يتسع هذا التقديم الموجز لذكر نماذج منها، وإن الذى يعيش فى مصر هذه السنوات الطويلة ما كان متصلاً منها وما كان متفرقاً، لا بد أن يخلف رواسب من الحب للأرض والمكان وأواصر من الود للسكان والإخوان، وهكذا لا يزال الدكتور عبد الهادى مستمسكاً بهذه القيم ملتزماً بهذه الذكريات، ومن ثمّ فهو ثمرة فتيّة يتنازع رحيقها كلٌّ من القطرين الشقيقين مصر والعراق.

وللدكتور عبد الهادى رضا نشاط علمى عريض فى جامعات العراق وجامعة الكويت، وهو الأب الشرعى لجامعة البصرة، فهو منشؤها وواضع أولى لبناتها وزارع حجر الأساس لكلياتها، وقد ظل الدكتور عبد الهادى رئيساً لها خمس سنوات تقريباً حتى خرّجت الجامعة على يديه الدفعة الأولى من أبنائها.

والدكتور عبد الهادى رضا من العلماء المتواضعين المتسمين بلين الجانب وقلة الكلام ووفرة العلم، فإن داره سواءً فى أثناء عمله فى العراق أو الكويت تضم مكتبةً كبيرةً حوت كل نفيس من الكتب، وكل ثمين من الأسفار، بل إنه لمزيد من الحقيقة كانت الدار تضم مكتبتين كبيرتين وليس مكتبة واحدة، فالمكتبة الثانية تخص زوجته وشريكة حياته وقسيمة دربه كبيرة شاعرات عصرنا الأخت العالمة الناقدة الشاعرة الأستاذة نازك الملائكة، وللقارئ أن يتصور كم تضم مكتبتان لمثل هذين الزوجين الرفيعين من جواهر العلوم وكنوز المعارف، إنهما - وقد ترهباً فى محراب المكتبة الكبيرة - استطاعا أن يستوعبا من صنوف المعرفة ما لم يتوفر لغيرهما اللهم إلا للقليل من قرنائهما. وغنى عن البيان - وتلك

حالهما - أن يكون قد تخرَّج على أيديهما آلاف من طلاب الجامعات، ومئات من حصلوا تحت إشراف كلٍّ منهما على إجازات الماجستير والدكتوراه.

تلك سطور قليلة موهلة في الإيجاز للتعريف بمؤلف الكتاب.

فماذا بعد ذلك عن الكتاب نفسه؟ هذا الضرب من الأسئلة مما لا تجوز الإجابة عنه في مثل هذا المقام اللهم إلا بكتاب آخر ويكون الحال أنئذ ضرب الدعابة، ولكن الميسور في هذا المقام ذكر بعض ما ييسر تقريره من حقائق حول شخصية الوزير «نظام الملك» أشهر وزير في سيرة تاريخ الأمة الإسلامية على وفرة ما حفلت بها مسيرتها من وزراء عظام من أمثال البرامكة: خالد ويحيى والفضل وجعفر ووزراء المنصور والمهدى والرشيد، ومن أمثال: أبي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد وزيري بنى بويه، ومن أمثال: عبد الرحيم البيساني المشهور بالقاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي الذي كان صلاح الدين يقول عنه: «نصرت بقلم عبد الرحيم»، فإذا ما عبرنا إلى الأفق الأندلسي وقع بصرنا على الوزير العالم السياسي المؤرخ الفقيه الكاتب الوشاح الشاعر لسان الدين بن الخطيب.

وإذا كانت هذه المقدمة القصيرة لا تتسع لمثل هذا الحديث الذي حفلت المكتبة العربية قديمًا وحديثًا بكثير من الكتب عن الوزراء والوزارة وآدابها وتقاليدها ومؤهلاتها وغير ذلك، فإنه يجمل بنا أن نخفف العبء على القارئ لنعبر إلى الشاطئ الذي يخص الوزير «نظام الملك» لنذكر القليل من مؤهلاته ومآثره.

كان «نظام الملك» فارسياً من منطقة طوس، ولكن الإسلام لا يفرق بين جنس وآخر، فالمرء في الإسلام بعمله وليس بنسبه، وهو - أي نظام الملك - من أبناء الدهاقين وهم الزراع وملاك الأراضي، وقد ولد سنة ٤٠٨ هـ في قرية يقال لها «نوقان»، وقام أبوه بتحفيظه القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ وتعليمه الفقه والأدب والشعر، وقد أولى حديث رسول الله ﷺ اهتماماً خاصاً بحيث صار محدثاً، وكان يقول: «إني أعلم أنني لست أهلاً لذلك، ولكنني أريد أربط نفسي في قطار النقلة لحديث رسول الله ﷺ».

ولما شبَّ عود «نظام الملك» اتصل بخدمة ابن شاذان والى بلخ وكان يكتب له، ولكن هذا الوالى كان يصادره كل عام، فهرب واتصل بوالد السلطان ألب أرسلان، ثم صار وزيراً لألب أرسلان نفسه عشر سنين فلماً اغتيل سنة ٤٦٥هـ تولى وزارة ابنه السلطان ملكشاه لمدة عشرين عاماً، فكانت مدة توليه الوزارة ثلاثين عاماً تقريباً.

وكان الوزير «نظام الملك» -شأن أكثر وزراء ذلك الزمان- كريماً جواداً محبباً للعلم والعلماء وكان يجلس كلاً من أبى المعالى إمام الحرمين وأبى القاسم القشيري (صاحب الرسالة) على مسنده، وفى ذلك يقول السبكي فى «طبقات المشافعية»: «مجالسه معمورة بالعلماء، مأهولة بالأئمة والزهاد، لم يتفق لغيره ما اتفق له من ازدحام العلماء عليه. ويلقبه السبكي «بالوزير الكبير العالم العادل، دولته كلها فضل، وأيامه جميعها عدل، ووقته وابل بالسماح مغدق، ومجلسه بجماعة العلماء صباح مشرق».

إن وزيراً هذا شأنه كان من البدهيات أن يهتم بتعليم الناس اهتمامه بإكرام العلماء فكان أول من أنشأ المدارس، وفى عبارة أخرى أشهر من بنى المدارس والمساجد والأربطة والخانقافات، فقد أنشأ إحدى عشرة مدرسة أو بالأحرى هى كليات طبقاً لمصطلحات زماننا واختار لها كبار العلماء وكثيراً ما كان يسهم فى اختبارهم قبل تقلدهم وظائفهم، فبنى هذه المدارس المشهورة فى بغداد، وبلخ، ونيسابور، وهراة، وأصبهان وعسكر مكرّم، والبصرة، ومرو، وأمل طبرستان والموصل، وطوس، وأجرى الأرزاق على العلماء والطلاب والموظفين.

وكان «نظام الملك» فارساً فاتحاً مظفرأ، وفى عهد وزارته امتدت حدود دولة ملكشاه من كاشغر إلى بيت المقدس طولاً، ومن قرب قسطنطينية إلى بحر الهند غرباً.

لقد أجمع العلماء على الثناء عليه بشمائل لم يوصف بها حاكم من قبل باستثناء الراشدين الخمسة . . من هؤلاء العلماء الذين شملوا الوزير بالثناء

الوافر الأمير العالم أبو نصر بن ماكولا، ومنهم إمام الحرمين الجويني وغيرهما.

ومن شمائل «نظام الملك» الذي لا أتردد في وصفه بكبير وزراء الأمة الإسلامية أنه ما جلس قط إلا على وضوء، ولا توضع إلا وتنقل، يقرأ القرآن ولا يتلوه مستنداً إعظاماً له، وإذا أذن المؤذن أمسك عن كل شغل هو فيه وأجابه، ويصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، ولا يمنع أحداً من الدخول عليه خاصةً وقت الطعام.

لقد نشر «نظام الملك» العدل والعلم، والجود، والخير، والعمران، والرخاء، وأعزّ جانب المسلمين وحصّن الثغور، ومع ذلك فقد مات غيلة رغم شيخوخته وفناء وقته في خدمة الرعيّة، إذ طعنه شاب متظاهر بالصوفية فكانت الطعنة قاتلة لزيّنة وزراء المسلمين بعد إفطار العاشر من رمضان سنة ٤٨٥ هـ فحمل إلى أصبهان حيث جرى دفنه فيها.

وكان من أجلّ ما رثى به ما أنشأه شبل الدولة أبو مقاتل بن عطية بن مقاتل البكري قائلاً:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة

نفيسة صاغها الرحمن من شرف

عزّت فلم تعرف الأيام قيمتها

فردّها غيرةً منه إلى الصدف

إن الأمر الذي يدعو إلى العجب أن آخر كلام نطق به «نظام الملك» وهو يحتضر: «لا تقتلوا قاتلي، فإنني قد عفوت عنه»، ثم تشهد ومات.

وبعد.. فهل يحاول وزراء المسلمين المعاصرون أن يعرفوا شيئاً عن الوزير «نظام الملك» وأن يقلدوه ولو في القليل؟! إذن لأفلحوا وأفلح معهم المسلمون.

وبعد مرةً أخرى أقول: هذه كلمات مختصرات أردت أن أحيي بها أخي

وصديقى العالم الجليل الأستاذ الدكتور عبد الهادى رضا محبوبه مؤلف هذا الكتاب النفيس وصاحبه، فحيّاه الله وأسعد زمانه، ونضّر أيامه، ووهبه وكل من حوله نعمة صحة الدين والدنيا وبارك لهم حلاوة إيمانهم، والله سبحانه المستعان.

مصر الجديدة فى : ٢٠ من صفر ١٤١٩ هـ

١٥ من يونية حزيران ١٩٩٨ م

مصطفى الشكعة

تقديم موجز

بقلم المؤلف

كان هذا النمط - دراسة الشخصيات ومكانتها فى التاريخ - مألوفاً لدى المختصين ثم مالوا عنه إلى ضروب أخرى تعنى بدراسة الفنون والموضوعات أو الظواهر الأدبية والأحداث التاريخية فى بيئات خاصة لفترات معينة.

ولا شك بأن مرحلة الانتقال هذه كانت بدافع اليسر والوصول إلى نتائج قيمة واضحة أجدى على القارئ وأجدر بالفائدة لأن دراسة الأشخاص تتطلب بحثاً شاملاً للبيئة والعصر اللذين عاش فيهما الأشخاص فتأثروا بهما وأثروا فيهما. وتتبعاً للأحوال والأعوام التى سبقتهما لتلمس التيارات الاجتماعية التى تلاشت أو بقيت والتى نمت أو ضعفت لتبين ما أضفته تلك الشخصية على التاريخ من مظاهر تقدمية أو رجعية أو محافظة وما أسدته إلى الإنسانية من بعث لأمجاد ماضية أو إثارة لأحقاد بشرية دفيئة.

وليمت شخصية الوزير - نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٥ هـ - ممن جهلها التاريخ فقد عرفه المؤرخون وكتبوا عنه فى لغات شتى منذ قرون خلت ولكن بأسلوب الترجمات القديم المتعارف الذى أخذ يتناقله الخلف عن السلف. أما دراسته دراسة علمية مستوفاة لجميع نواحي حياته فلم أظفر لها بكتاب حتى اليوم سوى مؤلف واحد فى «الأردية» نهج مؤلفه طريقة القدماء فى تأليفه.

لقد مرت بى - وأنا طالب فى معهد الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة - فى الخمسينات - شخصيات إسلامية كان لها أعمق الأثر فى نفسى وتوجيهى وكان فى طبيعتها وزيرنا - نظام الملك - حيث كنا نتدارس مع أستاذنا المرحوم الدكتور يحيى الخشاب^(١) نصوصاً من كتاب «سياستنامة» فلفت نظرى تفكير مؤلفه

(١) زوج الأستاذة الفاضلة المرحومة سهير القلماوى- وقد أنجب منها الدكتورة: عمر، وياسين - فكانا خير خلف لخير سلف.

الخصب وسيرته الحافلة بأنواع النشاط والحركة وإيمانه الصادق في معتقده ووثابه الذي لا يثنيه رغبة أو رهبة.

ومن ناحية أخرى، فقد وجدتُ في سيرته تاريخًا حافلًا لتلك الفترة الحاسمة من تاريخنا وجلاءً لمسائل مازالت غامضة في سياسة الخلفاء العباسيين ومن عاصرهم من سلاطين آل سلجوق. ولأن في تحقيق ذلك جميعه تاريخًا لبهنداد العراق وأنا من أبنائها الذين أرى لزامًا عليّ أن أساهم في البحث عن سالف مجدها وغابر تاريخها. ومن ذلك الحين وجدتنى أنزع إلى تتبع حياة الرجل وجمع ما قيل فيه وألف عنه ولمّ شمل تراثه والإحاطة به إلى أن هيات لى الظروف تقديم هذه الدراسة المتواضعة في سيرته وعصره وآثاره.

وقد اعتمدت في دراسته على المصادر الفارسية بعد آثاره العربية لأن الفرس - في اعتقادي - أعلم بأخبار بلادهم وأطلع على دخائل سياستهم ونفوس ساستهم ولأنه عاش بين ظهرانهم وفي ربوعهم ورووا عنه من الأفاضل والأحداث ما لم تذكره المصادر العربية. أمّا تلك الآثار التي خلفها لنا فقد أوليتها عناية خاصة، وفضلت عرضها عرضًا يعتمد على التعليق والمقارنة، وترجمت ما لم يترجم منها إلى العربية.

ولما كان لعلاقته بالمتجمع عن طريق البارزين من رجال السياسة والعلم من أثر بالغ الأهمية فقد عنيت بملاحقة هذه الصلات وتحليل هذه العلائق وإيضاح ما حدث بينه وبين أتباعه وبين مناوئيه من صنوف الخصومة معتمدًا في هذا كله على تراجم عدد كبير من أعلام عصره في مواضعها المختلفة. ثم بنلت جهدًا لا يقل عن سابقه في ما كتبه العرب في ثنايا مصنفاتهم في التاريخ والطبقات وبخاصة القديمة والقريبة من عهد «النظام» أو المعاصرة له كدمية القصر للباخرزي المتوفى سنة ٤٦٥ هـ، والمنتظم لابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ. وحاولتُ بعد هذا الاطلاع على ما كُتب عنه في لغات أجنبية مختلفة وإن كانت مترجمة فوجدت فيها من اللطائف والملاحظات ما نفعنى في تصور أهداف «النظام» في الحكم وفي الدولة وتوضيح معالم شخصيته.

وقد انتهى بى البحث كمقدمة لهذه الدراسة إلى أن الوزارة نظام عرفه المسلمون حيث بدا مشورة وكتابة وانتهى إلى وظيفة إدارية تنفيذًا تارة وتفويضًا أخرى: وإن أبا سلمة الخلال الوزير العباسى الأول كان عربى اللسان، والسلالة، من قبيلة همدان اليمانية، وليس مولى مشروبًا إلى همدان المدينة الفارسية المعروفة فى إيران، وإن «نظام الملك» كان أكبر الوزراء الإسلاميين مقامًا ودهاءً حيث استطاع أن يضع التاج على مفرق سلطانيه - ألب ارسلان وملكشاه - وأن يتحكم فى الخلافة العباسية من ورائهما طوال ثلاثين عامًا وأن يشاركهما فى فتوحاتهما حتى وصل حكم الخلافة الإسلامية إلى أقصى حدودها سعة وانتشارًا: من الهند والصين شرقًا إلى شمال إفريقيا وجنوب أوروبا غربًا.

فإذا استطاع هذا البحث أن يصل بى إلى أعماق هذا الوزير ويكشف لى عن دوافعه التى كانت تحمله لأن يبرز فى منشأته العلمية وسلطته الحربية، ثم يجلب لى حقيقة الوضع الاقتصادى والدينى والسياسى والعلمى فى عهده، وكيف استطاع أن ينفذ إلى الحكم ويعيش إمبراطورًا يسوس الخلافة الإسلامية فى عهدى القائم والمقتدر ومن ورائهما مدى ثلاثين عامًا، فإذا استطاع البحث أن يبلغ بى ذلك فإنى أعمده بداية حسنة يمكن التوسع فى بعض أجزائه والتعمق فى بعضها الآخر عند إعادة النظر فيها وإعادة طبع الكتاب بعون الله وتوفيقه.

ومن الجدير بى أن أعترف بأنى لست من الفراسة أو الخبرة فى تحليل النفوس بحيث أقطع بكمال جميع ما وصلت اليه من نتائج وأحكام، وأن أستطيع الجزم بصحتها ودقتها بشكل تام، على أنى - يشهد الله - لم أف منه فى كل ما انتهيت من حكم له أو عليه موقف القاضى المتهم له أو المحامى المدافع عنه، وإنما حاولت قدر المستطاع أن التزم الحياد توحياً للحقيقة وتحقيقاً للغرض من البحث العلمى معتقدًا بسلامة قول الفقهاء: «المتهم برىء إلى أن تثبت إدانته» - أى أن الأصل هى البراءة.

وإنى وإن كنت أتخشى المبالغة فى نزاهة «النظام» وحدة ذكائه ومدى عبقريته، إلا أنه يصحّ أن يتخذ القارئ من حياته مثلاً أعلى للسياسى الهادف ومن سيرته نموذجاً صالحاً للإيمان الصادق وقدوة حسنة للثبات على المبدأ والسعى الحثيث لتحقيقه، وإن كان فى سبيل ذلك خطراً على حياته وهدراً لدمه، كما حدث «للنظام» نفسه حيث اغتيل عام ٤٨٥هـ، على يد فدائى من الباطنية فى زى صوفى.

د/ عبد الهادى محمد رضا محبوبه

القاهرة - القبة / ش سوزان مبارك

فى ١٩ يوليو ١٩٩٨م